

سافر في قصة موسى

بقلم الدكتور - مصطفى السيد

رئيس قسم الأدب بجامعة

الإمام محمد بن سعود الإسلامية

فرع القصيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه وسلم . أما بعد فإن مكتبة علوم القرآن معجزة أخرى لهذا الكتاب العظيم ، الذي خلد العربية وحمى كيانه .

وتتمثل هذه المعجزة في نهر المعرفة المتدفق ، الذي فجرته آياته وكلماته منذ اللحظة الأولى لنزوله حتى النصف الأول من الألف الثانية من عمره المبارك ، هكذا كان في المضمار الثقافي .

أما في الميدان العملي ، فما زال يبعث في الأمة أملاً متجدداً ، وعزة قعاء^(١) ، لا ترى فيما يجابهها أكثر من كبة عابرة ومحنة زائلة ؛ لأنها تجدد في تاريخ البشرية الممتد فوق جباه القرون لوحات ناطقة مواعظ وعبراً ، إنشاء وخبراً . وكم أرخت هموم الحياة سدولها على واقع المسلمين حتى قال أعداؤهم : « هذه مهلكتهم » ، فيقيض الله لهذه الغمة رجالاً ، ينكشف بهم الضر ، ويصححون العلاقة بين الأمة والقرآن ، بتقديم الدراسة الواعية ، والقراءة العميقة ، التي تجعل منه سوراً منيعاً أمام محاولات الاجتياح الثقافي ، والانكسار الحضاري .

(١) قعاء: يقال عزة قعاء: ممتعة ثابتة . المعجم الوسيط: ٧٤٩/٢ .

ولقد كان القرآن الكريم مصحوباً بالحديث الشريف أمام كل انتصار ، ووراء كل وثبة للأمة الإسلامية ، وكان العلماء هم الطليعة في كل الزخوف ، ولم يكن أعداء الدين جاهلين مصدر قوة المسلمين وتماسكهم ، ففكروا وقدروا ، ثم فكروا وقدروا ، فرأوا أن لا مُكنة^(١) لهم في إدخال الزيادة أو النقصان على حروفه وكلماته وسوره وآياته ؛ لأنه محفوظ في حرز حريز ، إنجازاً لوعده الله الذي تكفل بحفظه ، حيث يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(٢) ، فلم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس ، فقال تعالى : ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَضُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾^(٣) ؛ أي بما طلب إليهم حفظه .

والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأييد ، وأن هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه ومهيماً عليه^(٤) ، « وكم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق كل عام لمحو هذا القرآن ، وصد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان والخذاع والإغراء ، ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ سَيُغْلَبُونَ ﴾^(٥) ذلك بأن الذي يمسكه أن يزول هو الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا^(٦) . ولكن أعداء الدين في الداخل والخارج لم يستيثسوا ، وخلصوا نجياً ،

(١) المكنة (بضم الميم) : القدرة والاستطاعة ، والقوة والشدة ، المصدر السابق : ٨٨٢/٢ .

(٢) سورة الحجر : ٩ .

(٣) سورة المائدة : ٤٤ .

(٤) النبأ العظيم : ١٣ - ١٤ . د . محمد عبدالله دراز ، دار القلم ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٠ - ١٩٧٠ .

(٥) سورة الأنفال : ٣٦ .

(٦) النبأ العظيم : ٤٤ .

وجاسوا خلال الصفوف ، وتترسوا خلف دراسات مشبوهة ، لن يكون آخرها كتاب (القرآن قراءة معاصرة)^(١) ، مثلاً للطابور الخامس في عالم الثقافة الإسلامية .

إن أكبر مصيبة تحمل بالمسلمين أن يحال بينهم وبين كتاب ربهم وسنة نبيهم ، وذلك عندما يقرآن قراءة لا تتأسس على أصول السلف ، ولا تستصحب معها رؤى العصر . إن ذلك - عندما يحصل - يجعل من المسلمين أمة بلا هوية ، ويفقدتهم الشهادة على الناس ؛ لأن الحياة لا تستأمر غائبين ، ولا تستشهد مغيبين .

ليس غريباً أن تتقدم قصة نبينا موسى عليه السلام سائر القصص القرآني ، سواء لجهة المكان الذي شغلته من صفحات المصحف الشريف ، أو المكانة التي تبوأتها عند العلماء ، أو لخطورة الفتنتين اللتين واجههما موسى ، والتي كانت كل منهما - إلى جانب ما فيها من العناد والقسوة والكفر - كانت أيضاً فئسة ممعنة في التكبر والطغيان (فرعون وملؤه) ، وأخرى استمرأت الذل والتبعية والاستضعاف (بنو اسرائيل)^(٢) .

وهذه القصة - وإن كانت تتمحور حول حدث ماض - قادرة على تحريك الزمن ، ومن ثم المتلقي في كل اتجاه ، بوصفها بنية عقدية تشريعية ، تربوية ، تاريخية ، زمانية ، مكانية ، أداتها اللغة ، وقراؤها ؛ لأداء العبادة في الصلاة والتلاوة تعليماً وتعليماً ، يعدون بمئات الملايين ، فمن حق هؤلاء أن يكون بين أيديهم قراءة واعية وعميقة للقصص القرآني عموماً ، وقصة

(١) الكتاب والقرآن ، قراءة معاصرة: ط ، ١ - ١٩٩٠/٩ . ط ٢ / ١٢ / ١٩٩٠ ، الأهابي للطباعة والنشر والتوزيع .

مؤلف هذا الكتاب مدرس بكلية الهندسة بجامعة دمشق في ج . ع . س . بذل كل جهده ليقدم تفسيراً ماركسياً للقرآن الكريم . المؤلف تخرج في الاتحاد السوفيتي ، وهو يومهم القراء اعتماده على مفاهيم لغوية ، إلا أنه في الحقيقة يقدم مشروعاً متكاملًا لنسف فهم السلف ، ودلالات اللغة ، ليقدم مخططاً مشبوهاً .

(٢) القصص القرآني ، إبحاره ونفحاته: ٢٢٤ .

سيدنا موسى عليه السلام على وجه الخصوص ، بحيث تضاعف هذه القراءة - الدراسة - فهم المسلم وغيره لمقروئه ؛ لأنها ليست قصة فرد أو قصة أمة ، (بل قصة البشرية جميعاً) ^(١) .

فالمسلم يدرك بتأمل القصص القرآني عموماً أنه سليل أمة متميزة بعقيدتها، ضاربة بعروقها في أعماق التاريخ ، قادتها الأنبياء ، وهويتها العقيدة: ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون ﴾ ^(٢) ، ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ ^(٣) .

ويدرك خصوصاً أوجه الشبه بين دعوة رسولنا محمد ﷺ ودعوة أخيه موسى عليه السلام ^(٤) ، فيعلم ديمومة المعركة ، وأن شرف الجندية لخدمة الدعوة المباركة من أعظم ما صرفت فيه الأعمال: ﴿ ومن أحسن قولاً لمن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ ^(٥) .

قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : « ثنى الله عز وجل قصة موسى مع قصة فرعون ؛ لأنهما على طرفي نقيض في الحق والباطل ، فإن فرعون في غاية الكفر والباطل ، حيث كفر بالربوبية وبالرسالة ، وموسى في غاية الحق والإيمان ، من جهة أن الله كلمه تكليماً ، لم يجعل بينه وبينه وساطة من خلقه ، فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكلم ، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت ، وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار ، فإن الكفار - أكثرهم - لا يجحدون وجود الله ، ولم يكن للرسول من تكليم ما كان لموسى ، فصارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص ، وأعظمهما اعتباراً

(١) نظرات تحليلية في القصة القرآنية: ٨ - ٩ .

(٢) سورة الأنبياء: ٩٢ .

(٣) سورة المؤمنون: ٥٢ .

(٤) الدكتور التهامي نقرة في كتابه سيكولوجية القصة في القرآن: ١٢٤ ، ذكر أكثر من وجه شبه بين دعوة موسى ودعوة محمد ﷺ ، صدر الكتاب عن الشركه التونسية للتوزيع .

(٥) سورة فصلت: ٣٣ .

لأهل الإيمان ولأهل الكفر ، ولهذا كان النبي ﷺ يقص على أمته عامة ليله عن بني إسرائيل ، وكان يتأسى بموسى في أمور كثيرة ^(١) .

أين كتاب وأدباء المسلمين من دراسة القصة القرآنية ، التي يجب أن تتم ابتغاء تحقيق أكبر محصول عملي من قراءة المسلم القرآن ، ووصولاً إلى الفهم الحقيقي الشامل لخطاب الله عز وجل ، وتأسيساً لمعرفة قرآنية إسلامية ، تعطي النص القرآني دوره المطلوب في تشكيل العقل والفعل والقول في دار الإسلام .

إنني أكتب هذا الكلام « لأذكر بأن رسالة الأدباء والمفكرين في هذه المرحلة في بلادنا ليست هي دور (الموالي) - بفتح الميم - لثقافة وآداب وصيغ وشعارات أوروبا شرقاً وغرباً » ^(٢) .

وكم يؤلمنا عندما يتشبه قلة من كتابنا بالمستشرقين والملاحدة فيستشهدون بالآيات الكريمة من غير اعتبار خاص ، ويشيرون إلى الرسول ﷺ من غير تمييز ^(٣) ، إن دورهم الحقيقي يكون في انسجام إبداعهم الأدبي مع عقيدة الأمة ، وتجربتها العميقة ، ورحلتها الطويلة .

إن الأمر يدعو للأسف أن نلاحظ بعض الغياب بين الدراسات القرآنية والدراسات الأدبية ، التي كانت سالكة في الاتجاهين ، وكانت خيراً عميقاً للجانبين . أما الآن فلئن تقدمت كماً ، فقد تراجع كيفاً ، ولئن جاءها مفكرون متمكنون ، فقد كانت آراؤهم تعليماً جديداً لأفكار المعتزلة ، كما كانوا أيضاً مُستعدين على امتهم بالمناهج الغربية ^(٤) .

(١) مجموع الفتاوى: ١٢/٩ ، لشيخ الإسلام ابن تيمية - مكتبة المعارف ، الرياض/المغرب .

(٢) قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح: ١٢ ، لأحمد موسى سالم ، دار الجليل - بيروت - ١٩٧٨ م .

(٣) مجلة المنهل: ٢٦ ، العدد ٤٩٣ ، رجب ١٤١٢ هـ ، مقال بعنوان: الاتجاه الإسلامي في الشعر الجزائري - د/محمد مرتاض .

(٤) عنون الدكتور جابر عصفور في مقالة له في مجلة إبداع: ٣٠ ، العدد الثالث ،

إن هذا الغياب عن ساحة الدراسة الجادة للقصة القرآنية أثار تعجباً وتساؤلاً لدى بعض الكتاب فقال:

« عجبت أن لم يلتفت إليها ؛ أي القصة القرآنية ، أحد من نقادنا ، ثم ما لبثت أن قمعت هذا العجب ، فمنذ متى يهتم نقادنا بديننا أو تراثنا ؟ إنما كل همهم أن يلوا الستهم بلغة غير لغة بلادهم ، وينسبوا أنفسهم إلى أدب غير أدبهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » ^(١).

وإذا كان هذا موقف أكثر المعاصرين ، فإن مجهودات الأقدمين على جلالتها في خدمة التفسير عموماً ، فإن سحاب الإسرائيليات اللجب قد حجب جماليات القصص القرآني أحياناً كثيرة ، كما تمحور كثير من دراسات السابقين حول المفردات والتراكيب ، دون أن تتمكن من تشييد فضاء واسع يتجلى في منظومة متكاملة ، تكون أكثر عوناً للقارئ ؛ لتمضي به نحو فهم شامل وكامل للقصص القرآني ، وبعضها كان يجهد في غير عدو ، ويعمل في غير معمل ، عندما « يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس معهم بالبحث عن النملة ، وهل هي ذكر أم أنثى ، وعن الموضع الذي كانت فيه مملكتها ، واسم الوادي الذي قامت فيه تلك المملكة ، ثم اسم النملة ، أي والله ، اسم النملة » ^(٢).

ولقد أدان ابن تيمية ، رحمه الله ، هذا الاتجاه عند المفسرين ، الذي يأتي على حساب النص لا لحسابه فيقول:

« لا خير فيما لم يذكره القرآن ، كالبعض الذي ضرب به موسى الغلام ، والغلام الذي قتله الخضر ما اسمه ... » ^(٣).

مارس ، ١٩٩١ م عن كتاب (مفهوم النص ، لحامد أبو زيد) ، عنون مقالته بعنوان: (مفهوم النص والاعتزال المعاصر) .

(١) السرد القصصي في القرآن الكريم: ٣ ، لثروت أباطه .

(٢) القصص القرآني من العالم المنظور وغير المنظور: ٢٢ ، للدكتور/ عبدالكريم الخطيب .

(٣) مجموع الفتاوى: ٣٤٥/١٣ .

يكفي القصة القرآنية فضلاً ومكانة اختيار الله سبحانه وتعالى لها لتكون موضوع إحدى سور القرآن الكريم الطويلة^(١) ، أو بعض موضوعات من سور أخرى ، ولتكون صورة للوجود المثالي للإنسان ، متمثلاً بالأنبياء ، ونموذجاً للعلاقة بين الإنسان وهذا الكون وبارئته سبحانه وتعالى ، وبياناً لمنهج العيش مع أفراد الأسرة البشرية من مؤمنين وكافرين ومنافقين .

ويكفي هذه القصة أن تحمل إلينا صيحة أطلقتها غملة ، نعم غملة نكرة ، وأن هذه الصيحة تبلغ مسامع سليمان عليه السلام ، لو أن قاصاً معاصراً ، غريباً على وجه الخصوص أفسح للغملة في صفحات قصته مكاناً ، لسدت الأفق إشادات النقاد بهذه اللفتة الإنسانية لهذا المخلوق الضعيف !!!

إن ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾^(٢) ما كان لهم أن يرتقوا إلى سمو القرآن وأفقه الأرحب .

تساءل إحدى دارسات الرواية العربية « كيف يمكن أن تستظم العلاقة بين السماء والأرض ، أو بين الله والإنسان ، بحيث يمكن أن تسير الحياة في إيقاع منسجم في جميع مراحل الحياة ؟ »^(٣) . إن وجودنا في هذا العالم ، وحياتنا فوق هذا الكوكب ، من صنع ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾^(٤) .

وإن الله سبحانه قد هيا لهذا الانسان - فضلاً منه ومنة - كل أسباب العيش الرغد والوجود المتوازن ، والقصة القرآنية باستعراضها النماذج المختلفة لما كان لينسج على منوالها ما يكون ، ولما فات ليني على ما هو آت . لا ندعو إلى استعادة آلية للماضي ، ولا إسقاطه على الحاضر دونما

(١) كسورة يوسف ﷺ .

(٢) سورة الحجر: ٩١ .

(٣) نقد الرواية: ١٣٨ ، للدكتورة نبيلة إبراهيم ، النادي الأدبي ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م .

(٤) سورة طه: ٥٠ .

مراعاة خصوصية كل عصر أو مصر ، بل ما نريده أن نستحضر في كتابة الأدب وقراءته ونقده جوهر الحياة التي يريدها القرآن .
ولعل في الصحف القادمة إجابة على تساؤل الناقدة والدارسة المتعمقة...^(١)

وهذه الدراسة ليست بحثاً تاريخياً ، أو محاكمة فلسفية وفكرية لأدبيات النهضة ، بل هي مقارنة لاستكشاف أسلوب القرآن الكريم في التغيير من خلال قراءة استكشافية ، تذوقية ، تربوية ، أسلوبية ، للقضايا أو الخطوط العريضة لقصة حياة وكفاح واحد من أولي العزم من الرسل صلوات الله عليهم ، ألا وهو نبي الله موسى ﷺ ، الذي كانت قصته أكثر قصص الأنبياء وروداً ، وأغناها دلالة ، وأشملها قضايا ، فكانت كما يقول ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) : « أعظم القصص »^(٢) .

إن زمن القص في القرآن قد لا يتجاوز ساعتين ، ولكنه يغطي حياة هذا النبي التي امتدت حتى بلغت عشرين ومائة سنة ، فهو يقطر هذه الحياة في هذه اللوحات ، التي رسمت حياة موسى ﷺ ، وكفاحه للشرك الأكبر ، الذي كان فرعون - على مر العصور - أمودجه الأظهر ، وهو ؛ أي القص القرآني ، يعطر وجه التاريخ الكتيب للبشرية ، التي يتحكم بمصائرنا - على حين فترة من الرسل والدعاة - مغامرون أو مقامرون ، يعبثون بمقدراتها ، أو يعبثون - إلهاء وإشغالاً والتفافاً على الحق والخير - وثنيات متفرقة ، وشركيات مهترئة .

إن النص القرآني الذي انعكست في سورة وآياته حياة موسى ﷺ يتناول من هذه الحياة :

الطفولة : [الحياة في قصر فرعون] ، دخوله المدينة وقتله القبطي ،

(١) أي الدكتورة نبيلة إبراهيم ، في كتابها : نقد الرواية .

(٢) مجموع الفتاوى : ١٨/١٢ .

ومحاولة قتل الآخر ، الخروج إلى مدين وسقياه أنعام ابتي شعيب عليه السلام أو غيره من الصالحين ، زواجه بإحدى الفتاتين ، إقامته في مدين ، منصرفه إلى مصر ، الوحي والنبوة وتكليم الله عز وجل إياه ، دعوة فرعون إلى الإيمان ، هلاك فرعون ونجاة موسى مع بني إسرائيل ، السامري بوصفه إلباً على دعوة موسى ، وتأثيره في بني إسرائيل ، دعوته الطويلة لبني إسرائيل ، وما فيها من مواقف وعبر ودروس ، قصته مع قارون أبي الرأسمالية خططاً وخلقاً ، قصته مع الخضر . وسأحاول في الصفحات القادمة - إن شاء الله - أن أقدم قراءة متعددة الاتجاهات لبعض قضايا هذه القصة .

إن قصة واحدة من القضايا التي واجهت موسى ﷺ ، أو شخصية من الشخصيات التي واجهها من تلكم الشرائع من القضايا والشخصيات ، كانت كافية في عدّ هذه القصة نموذجاً في الأدب ، ومدرسة في التربية ، بتناولها كل الهموم ، ومواجهة خصوم الداء في خصومتهم ، فكيف وقد اتسعت ساحة المواجهة في تلك الملحمة الموسوية الصادقة ، لتحارب على جبهة عريضة وعميقة من الشخصيات والقضايا ، مختطة منهجاً فريداً في التغيير ، ومنفردة بأسلوب فريد نسيج وحده في التعبير ؟

إن بني إسرائيل أحد العناصر والقضايا التي حفلت بها القصة ، كانوا ، وما زالوا ، حاضرين في التاريخ شعباً أو عرقاً ، ارتبط اسمه وحضوره - إلا من استثنى الله منهم بهدايته - بالمشكلات ، ومن ثم بالتحدي والتصدي لكل دعوة خير ، وهم ماضون في غيهم ، سادرون في ضلالهم إلى يوم القيامة ، كما قد يفهم من قوله ﷺ :

(لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبدالله ، هذا اليهودي خلفي ، فتعال فاقتله ، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود) ^(١) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ٤٥-٤٤/١٨ ، دار الفكر - بيروت .

انظر إلى هذا التاريخ من العناد والتحدي:

﴿ وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾^(١) ، ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾^(٢) .

﴿ وإذ قلتم: يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾^(٣) ، ﴿ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾^(٤) ، ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم: كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾^(٥) ، ﴿ فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ﴾^(٦) » انظر كيف زاد المعنى ترشيحاً ، بإخراج الجريمة الأولى ، وهي جريمة القتل ، في صيغة الفعل المضارع تصويراً لها بصورة الفعل الواقع الآن ، كأنه بذلك يعرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم ، وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزكية^(٧) ، ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾^(٨) ، ﴿ فبما

(١) سورة البقرة: ٤١ - ٤٢ .

(٢) سورة البقرة: ٤٤ .

(٣) سورة البقرة: ٥٥ .

(٤) سورة البقرة: ٥٩ .

(٥) سورة البقرة: ٦١ .

(٦) سورة البقرة: ٩١ .

(٧) النبأ العظيم: ٦٠ ، للدكتور محمد عبدالله دراز ، دار القلم ، بيروت - الطبعة الثانية: ١٣٩٠ - ١٩٧٠ م .

(٨) سورة النساء: ١٦٠ - ١٦١ .

نقضهم ميثاقهم لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم ﴿^(١)﴾ ، وقالت اليهود عزيز ابن الله ﴿^(٢)﴾ ، ومن الذين هادوا سماعون للكذب ﴿^(٣)﴾ .

أرأيت إلى سلسلة الجرائم ، وجريدة الجرائر ، التي أدانتهم بها الآيات ، ودمغتهم بها هذه الحجج الساطعات « فيا عجباً لهذه الآيات ! هل كانت مؤلفة من حروف وكلمات ، أم كانت أغلالاً وضعت في أعناقهم إلى الأبد ، وأصفاداً شدت بها أيديهم فلا فكاك » ﴿^(٤)﴾ .

أي شعب واجه سيدنا موسى ﷺ ؟ وكيف تعامل مع هذه الأفاعي ؟ وهل انتهت فعائلهم الشنعاء ب وفاة موسى ﷺ ؟ لا ، لم تنته ، فها هوذا سيدنا عيسى ﷺ يقول لهم : يا بني إسرائيل : ﴿إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين﴾ ﴿^(٥)﴾ ، وأين كان موقعهم من خاتم الأنبياء ، وآخر الدعوات دعوة رسولنا محمد ﷺ ، لقد لازموا خندقهم التاريخي ، وأسلوبهم التقليدي ، وكأن القرون المتطاولة لم تزدهم غير عناد وتحدٍّ للخير .

تناسوا أنهم أتباع نبيٍّ أرسل هو ومحمد ﷺ بعقيدة واحدة ، ولغاية واحدة ، محاربة الشرك والكفر ، وتأسيس دولة الإيمان في الأرض ، تناسوا ذلك ، وتحالفوا مع المشركين والمنافقين ، لا يرقبون في مسلم إلاً ولا ذمة ، وأخذوا يشنعون على الرسالة والرسول ﷺ ، وقلما غابوا عن أي حدث كان يهدف إلى التشويه أو التشويش على الدعوة ، فعندما تحولت القبلية من بيت المقدس إلى مكة المكرمة خرجت صدورهم ، وضائق عليهم الأرض

(١) سورة المائدة : ١٣ .

(٢) سورة التوبة : ٣٠ .

(٣) سورة المائدة : ٤١ .

(٤) النبا العظيم : ٥٢ .

(٥) سورة الصف : ٦ .

بما رحبت ، وأخذوا يرددون أراجيفهم بصيغة أسئلة :

﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ ﴾^(١) ، وما مصير صلاة من صلى إلى بيت المقدس ؟ وازدادت أواصر التحالف بينهم وبين المنافقين ، وليس تفسير « السفهاء » من قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ سيقول السفهاء ﴾^(٢) من الآية السابقة ، ليس تفسير من قال إنهم المنافقون بعيداً عن مناخ العلاقة المتجددة بين الطائفتين (المنافقين واليهود)^(٣) .

ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل أرادوا أن يقذفوا في قلوب المؤمنين الشك في دخولهم الجنة ، عندما حصروا دخولها بهم وبإخوانهم الكفار من النصارى : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾^(٤)

وشككوا في أي مصدر للإيمان والتصديق إلا مصدرهم :

﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾^(٥) ، ﴿ يقولون إن أوتيتهم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾^(٦) .

ويقفون موقف الهازئ الساخر من أقدم شعائر المسلمين : ﴿ وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ﴾^(٧)

ولم تقتصر المواجهة الإسلامية مع اليهود على التلاسن وحروب الكلام ، بل تطور التحدي ، وانتهى التصعيد إلى مواجهة دامية مع بني قريظة ، وبني النضير ، ويهود خيبر ، وغيرهم ، انتهت بتقليم أظافرهم ، وتخطيم قوتهم ، وتراجع مكانتهم إلى أدنى مستوى عرفوه في تاريخهم ، إن هذه المواقف

(١) سورة البقرة: ١٤٢ .

(٢) سورة البقرة: ١٤٢ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ١٧١/٨ .

(٤) سورة البقرة: ١١١ .

(٥) سورة آل عمران: ٧٣ .

(٦) سورة المائدة: ٤١ .

(٧) سورة المائدة: ٥٨ .

الماضية - والتي لا تزال حاضرة الآن بوجه أو بآخر - ليست إلا تعبيراً عن الغائية الكامنة في أعماق أهل الكتاب ، والدافعية إلى ذلك . أما الغائية ، فهي أمنيته: أن يرتدّ المسلمون ، وأما الدافعية فهي الحقد ، والحسد . نعم ليس وراءهم إلا الحقد ، وهو حسبه من الشر: ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾^(١) .

وليس حضورهم خلف مشكلات العالم الحديث أو أمامها مما يجهله القارئ ، ولكن حسبي أن أشير إلى حقدهم وطغيانهم الذي مكنهم من انتزاع فلسطين ، مضافاً إليه غياب المسلمين وتغييبهم ، ولم يتوقفوا عند هذا الحد ، بل لقد بعثوا حلفهم القديم مع المنافقين بتحالفهم مع أمشاج من المثقفين ، الذين يغطون أي تراجع للمسلمين ، ويفلسفون كل تداع أمام اليهود بواهي الحجج ، وواهن البراهين ، من مثل: إن مضامين الصراع الآن غيرها قبل أربعة عشر قرناً ، والحروب من مخلفات الماضي ، وهي من سبل التخلف . وليس أخيراً (النظام الدولي) . وصدق الله العظيم الذي يقول:

﴿ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون: نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴾^(٢) .

استعمال المضارع (ترى) لعل فيه إيماءة إلى استمرار هذا النموذج المصاب في فؤاده ، ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ ، وقال جل من قائل حكيم: ﴿ يسارعون فيهم ﴾ ، ولم يقل يسارعون إليهم ، وهم قد يكونون بعيدين عنهم ، ولكنهم وقد تشابهت قلوبهم فمالوا معهم ، وتخذلوا وإياهم في حرب الإسلام ، فظهروا لذلك وكأنهم معهم ، وكان الآية تقول باختصار: حيث يكون القلب يكون الإنسان ، لا حيث يحل الجسم .

(١) سورة البقرة: ١٠٩ .

(٢) سورة المائدة: ٥٢ .

أما علم هؤلاء المنافقون أن الدائرة الأخطر قد أحاطت بهم ، وهي مجرد وجودهم الوجداني في معسكر العدو ، اليهود والنصارى ؟ والمرء إذ يقول ذلك لا يهون من دائرة القوة المادية التي تتهدد المسلمين في الداخل والخارج ، ولكن هذه ، مهما اشتدت ، فهي بإذن الله - إن لم تتجاوز الجسوم إلى القلوب - لاتخاذ الشهداء من المسلمين : ﴿ ولينمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ ^(١) .

هؤلاء المثقفون المرتبطون بأعداء الأمة من يهود ونصارى ، وإنك لتعرفنهم في لحن القول ؛ هم محامو الشيطان ومروجو نخالة الأفكار وزبالة الفنون ومسوقوها في عقول سواء المسلمين ، وذلك عبر إشاعة الفن الرخيص الهابط بكل أجناسه : قصة ، ومسرحاً ، وشعراً ، وبكل الوسائل والأساليب المريئة والمسموعة ، وإقامة أسواق النخاسة الفكرية لأحفاد السامري .

وصدق أبو قلابه ، أحد علماء سلف هذه الأمة ، في كلامه على قوله تعالى : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل ﴾ ^(٢) ، الآية : هي لكل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله ^(٣) .

إن هذا النص من أبي قلابه ليس إلا أحد الأدلة على أن المعركة مفتوحة مع اليهود ، وأن مواجهة موسى ﷺ لم تكن إلا مرحلة في هذا الصراع المتجدد ، وأن مواجهة عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم كانتا مرحلتين ، وإن كل جيل من المسلمين - حتى تقوم الساعة - سيُلى (بضم الياء) إيمانه بمواجهة أحفاد القردة والخنازير .

إن تأمل فصول هذه المواجهة في قصة موسى ﷺ على وجه الخصوص - وهي موضوع البحث - والمواجهات التي بعدها مع اليهود أجدى لوضع هذا الصراع في مرتبته الحقيقية ، وأجدر أن يكون الحل القادم مع اليهود نابعاً مما

(١) سورة آل عمران: ١٤١ .

(٢) سورة الأعراف: ١٥٢ .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٩٦/١٣ .

تمليه عقيدة المسلمين ، وقدرتهم التي لم تدخل هذا الصراع في العصر الحديث دخولاً يعكس حجمها الحقيقي ، هذا ما تقوله قراءة قصة موسى وغيره من الأنبياء في صراعهم مع اليهود ، وما تقوله هذه القصة حق ، والحق أحق أن يُتبع .

أما التماس الحلول خارج دائرة الوجود الحقيقي للأمة - هذا الوجود الممثل بدينها - فلن يكون إلا تعقيداً للمشكلات ، وإطالة لأمدها ومددها ، بما يصحب ذلك من خسران على كل صعيد ، وفي كل مستوى ؛ قبل إهلاك بني إسرائيل كانت دعوة موسى ﷺ لهم ، وقبل غزوه بني قريظة وخيبر كانت دعوة رسولنا محمد ﷺ ، وقبل استرجاع عمر لبيت المقدس كان عهده الذهبي ديناً ودنيا ، وقبل حطين كانت مشاريع صلاح الدين التربوية في تصفية آثار المشروع الثقافي الفاطمي في مصر ، وقبل عين جالوت كان المشروع الإنقاذي الطموح لابن تيمية ، كان مشروعاً في كل اتجاه .

لذا فإن كسب المعركة مع اليهود يُصبح بفضل الله مجرد توقيت زماني ، إذا من الله على ورثة الأنبياء من العلماء أن ينشروا في الأمة ميراث النبوات .

وعندما كثرت المسارح ، ولم يفصلها عن مراكز القرار كبير فرق - إن لم تتبادل معها المواقع - كثرت المعارك الدنكوشوتيه الوهمية - مع أعداء الأمة من اليهود وأمثالهم ، وكانت النتائج كالمقدمات مسرحية محضه ، بل هي أشبه بمسرحية ممعنة في الرمز ، كأكثر الأدب المعاصر ، لا يفهمها إلا العدد من الممثلين الذين لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد !!!

للافتاحية في القصة أهمية كبرى وهي :

إدخال القارئ في عالم مجهول ، عالم القصة بكل أبعاده ، وذلك بإعطائه الخلفية العامة لهذا العالم الذي تتحرك القصة فيه ، والخلفية الخاصة لكل شخصية ؛ ليستطيع ربط الخيوط والأحداث التي تستردّ فيما بعد .

وقبل افتتاح القصص في النص القرآني عن طفولة موسى ﷺ في كل من سورة طه (الآيات من ٣٧ إلى ٤٠) ، وسورة الشعراء (الآية : ١٨) ، وسورة القصص الآيات (٧ ، ١٣) لا أجد مندوحة عن التماس تفسير للحدث الغريب الذي يبدأ القصص منه ، وهو إلقاء موسى ﷺ في اليم بوصفه مئة أخرى يمّن الله عزّ وجل بها على نبيه : ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحي : أن اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له ، وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني إذ تمشي أختك فتقول : هل أدلكم على من يكفله ، فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن ﴾^(١) .

يقول ابن حجر في تفسير هذا الحدث : « ذكر السّدي في تفسيره بأسانيده أن : بدء أمر موسى أن فرعون رأى كأن ناراً أقبلت من بيت المقدس ، فأحرقت دور مصر ، وجميع القبط ، إلا دور بني إسرائيل ، فلما استيقظ جمع الكهنة والسحرة فقالوا : هذا غلام يولد من هؤلاء ، يكون خراب مصر على يده ، فأمر بقتل الغلمان ، فلما ولد موسى ، أوحى الله إلى أمه : أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، فقالوا : فكانت ترضعه ، فإذا خافت عليه جعلته في تابوت ، وألقته في البحر ، وجعلت الحبل عندها ، فنسيت الحبل يوماً ، فجرى به النيل حتى وقف على باب فرعون ، فالتقطه الجوارى ، فأحضره عند امرأته ، ففتحت التابوت ، فرأته ، فأعجبها ، فاستوهمته من فرعون ، فوهبه لها ، فربّته حتى كان من أمره ما

(١) سورة طه : ٣٧ - ٤٠ .

كان ^(١) .

ويقول الزمخشري (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) في تفسير قوله عز وجل : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون ... ﴾ ^(٢) :

« وإنما فعلوا به ذلك ؛ لأن الكهنة أئذروا فرعون بأنه يولد مولود يكون على يده هلاكه » ^(٣) .

في هذين النصين معلومات مهمة في تفسير الحدث الغريب الذي وقع لموسى ﷺ في فجر حياته ، وبيان لجانب من أقدار الله ، وكيف صنعه على عينه ، واصطنعه لنفسه ، فهو منذ اللحظة الأولى ، بل منذ أمد لا يعلمه إلا الله ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾ ^(٤) يُعَدُّ لدور ، ما أعظمه من دور ! ولرسالة أعظم بها من رسالة ! .

هذا الطفل الذي تسوقه الأمواج تحقيقاً لقدر الله إلى قصر فرعون ، والذي يكون قرة عين لزوجته ، ما كان فرعون يعلم أن هذا الطفل الذي يُرى في قصره سيكون يوماً ما على يديه هلاك هذا الطاغية ، بل ما كان فرعون يتوقع ما هو أقل من هلاكه ، فهو قد استنكر دعوة موسى إياه أن يرسل معه ومع أخيه بني إسرائيل ، فقال فرعون منكرأ على موسى : ﴿ ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ ^(٥) .

إن هذا القصر الذي بدأت معه قصة موسى طفلاً سيكون مكاناً مركزياً في

(١) فتح الباري: ٤٢٢/٦ .

(٢) سورة البقرة: ٤٩ .

(٣) تفسير الكشاف: ٦٨/١ ، واسم الكتاب: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - دار المعرفة - بيروت ، لبنان - تأليف أبي القاسم جار الله محمود ابن عمر الزمخشري .

(٤) سورة القصص: ٤٤ .

(٥) سورة الشعراء: ١٨ .

القصة ، ففي جنباته تبدأ الطفولة ، ومن ردهاته يخرج موسى ليقتل القبطي ، وفي صالاته تردد صدى دعوته ﷺ ، وفي قاعاته يدور الحوار بين موسى وهارون من جانب وفرعون من جانب آخر ، وذلك تقريراً منهما لحقيقة التوحيد ، ومجابهة شرك فرعون وظلمه .

وستكون لي عودة إلى متابعة سيرة حياته ﷺ بعد أن أقف وقفة مع حدث الطفولة في هذه القصة ، وهذه الوقفة من صميم الدراسة المقارنة ولعلي في حدود ما اطلعت لم أسبق إليها .

يعلم كل مطلع على أسطورة (أوديب) في الأدب اليوناني ، التي تأخرت في الظهور عن قصة موسى قروناً ، أن هذه الأسطورة تعد من عيون الأدب اليوناني ، ولم تقف عند حدود اليونان ، بل زحفت عبر العصور ، وتجولت في الأمم ، فالفرنسيون وحدهم أخرجوا فيها ثلاثين عملاً أدبياً ، كما كتب فيها الألمان والعرب (طه حسين ، والحكيم ، وباكثير) ، كما احتلت مكانة راسخة في البحوث النفسية .

هل آن الآوان لتجريد اليونان من هذا المجد الأدبي ؟ ^(١) الذي أعطوه من منطلق القول إنهم كانوا مخترعي أسطورة أوديب ؟

لقد فقدت (الكوميديا الإلهية) التي كتبها دانتي إليجييري (١٢٦٥ - ١٣٣١) شيئاً كثيراً من سمعتها الأدبية ، ومكانتها الإبداعية ، عندما كشف اثنان من بني جلدته أن قصة المعراج الإسلامية لم تكن غائبة عن مصادر الكاتب عندما سطرت يداه ملحمة (الكوميديا الإلهية) ، بل لعلها كانت أهم مصادره . إذا عدت أيها القارئ الكريم إلى النصين اللذين نقلتهما قبل قليل من فتح الباري ^(٢) ، والكشاف ^(٣) ، ما إخالك ترفض أصول الدعوى

(١) نظرات تحليلية في القصة : ٨ - ٩ ، لمحمد المجذوب ، دار الرسالة ، بيروت ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

(٢) فتح الباري : ٤٢٢/٦ .

(٣) الكشاف : ٦٨/١ .

التي أريد أن أحاكم فيها الإبداع اليوناني في هذه القضية .

وإذا علمت أن الأسطورة ليست هي الخرافة كما يخلط كثير من الكتاب بينهما مستعملاً لكلا اللفظين استعمالاً مترادفاً ، فالإمام الطبري يفسر قول الله عز وجل في سورة الأنعام: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أساطير الأولين ﴾ ^(١) يفسره بقوله: ما هذا إلا ما كتبه الأولون ، وقد ذكر عن ابن عباس وغيره أنهم كانوا يتبنون هذا التأويل .

وابن كثير - رحمه الله - يقول في تفسير الآية نفسها: أي ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ، ومنقول عنهم ^(٢) .

ويقول العلامة الشوكاني في (فتح القدير) في تفسير الآية نفسها: « ما سطره الأولون من القصص والأحاديث » .

فالتفسير الأول الذي قدّمه ابن جرير ، وأسنده إلى حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما ، وكذلك ما أثبتته ابن كثير والشوكاني لا يضع الأسطورة في المكان الذي تضعها فيه التعريفات المعاصرة ، فهي حسب ما ذكره هؤلاء الأئمة عن مكونات الأسطورة:

أحاديث الأولين ، مأخوذة من كتب الأوائل ، وأنها كانت تُسَطر ، وأي تفسير ، قديماً كان أم حديثاً ، لا يقدّم على تفسير حبر الأمة وبحرها ابن عباس ، واللغة بعد ذلك ظهير له .

والتعريفات السابقة تزلزل أصول الدراسة الحديثة للأسطورة ، التي تجعل من التعريف الغربي مدخلاً معتمداً في كل قراءة وتفسير ، وها هي ذي أسطورة أوديب من الشهرة بمكان واسع ؛ وإنني أتطلع للقارئ ليقرّن بينها وبين قصة موسى ﷺ ، التي وردت في مستويات متواترة كالقرآن الكريم ،

(١) سورة الأنعام: ٢٥ .

(٢) تفسير ابن كثير: ١٢٧/٢ .

كما وردت في الأحاديث الصحيحة ، وفي كتب التفسير .

وإن الإسرائيليات أيضاً لم تغب عن هذا المجال الخصب ، وإذا كان مصطلح التأثير والتأثير في الأدب المقارن ، وهو تأثير أحد النصين في الآخر ، بوصفه شرطاً للبدء في الدراسة المقارنة ، إذا كان هذا المصطلح قد نسخ تقريباً كما نسخت شروط المدرسة الفرنسية القديمة في هذا العلم ، فإن الشرط الذي اعتمدته المدرسة الحديثة ، وهو وحدة السياق ؛ أي أن يكون السياق في موضوع النصين واحداً ، كما في قصة موسى وأسطورة أوديب .

إن هذا الشرط يعطيني من إثبات التأثير والتأثير ، ويسمح لي التشكيك في أولية صياغة اليونان لأسطورة أوديب . والذي ترجح لدي أن قصة موسى ﷺ ، التي وقعت أحداثها في القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، قد وصلت إلى اليونان بشكل أو بآخر ، والذين يبدأ أدبهم في القرن الخامس قبل الميلاد ، فتأملوا هذه القصة ملياً ، وأخذوا منها عناصرها الرئيسة ، ثم أضافوا إليها الطابع المحلي بما فيه من وثنيات وكهنة ومعبد إلخ ... وإذا كان أتباع الأنبياء من يهود ونصارى قد حَرَفُوا كتب أنبيائهم ، وتنطَعُوا ، وغلوا فيهم إلى مرتبة الألوهية : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾^(١) فهل يستبعد أن يسطو اليونان على قصة موسى ﷺ ، ويسقطوا عليها ما تبيحه لهم عقائدهم الوثنية ، وهمومهم الفكرية والفلسفية ؟^(٢) .

عوداً على بدء ، إلى حدث الطفولة في قصة هذا النبي الكريم ، حيث «فرعون وهامان وجنودهما يتبعون الذكور من مواليد قوم موسى ؛ كي لا يفلت منهم طفل ذكر ، وها هي ذي أقدار الله تلقي في أيديهم ، بلا بحث ولا كد ، بطفل ذكر ، وأي طفل ؟ إنه الطفل الذي على يديه هلاكهم

(١) سورة الكهف : ٥ .

(٢) يقول الدكتور علي عبدالواحد وافي في كتابه الأدب اليوناني القديم : ٢٧ : « نوجه النظر بين ما جاء في بعض هذه الأساطير (أساطير اليونان) وما جاء في الكتب الدينية المقدسة » .

أجمعين ! ها هي ذي تلقيه في أيديهم ، مجرداً من كل قوة ومن كل حيلة ، عاجزاً أن يدفع عن نفسه ، أو حتى يستنجد بها ، هي ذي تقتحم به على فرعون حصنه ، وهو الطاغية السفاح المتجبر ، ولا تتعبه في البحث عنه في بيوت بني إسرائيل ، وفي أحضان نسائهم الوالدات ! » ^(١).

لقد هباً الله عز وجل لنبيه هذه البداية ليكون لفرعون وملئه ﴿عدوا وحزناً﴾ ^(٢) أما امرأة فرعون ، فقد ألهمت الحق عندما قالت: ﴿عسى أن ينفعنا﴾ ^(٣) ، وكانت فراستها في موسى صادقة حين قالت: ﴿قرة عين لي﴾ ^{(٤)(٥)} ، فقد نفعاها الله به نفعاً أيما نفع ، وهو إيمانها بعد أن كانت تحت طاغية الطواغي ، وأكفر خلق الله .

إنها أقدار الله عز وجل التي تسيّر هذا الكون حسب تقدير العليم الحكيم ، فأم موسى خافت عليه حيث يجب أن تكون آمنة: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾ ^(٦) ، وفرعون يُدْخِلُه قصره ، آمناً ، حيث كان يجب أن يخاف ، وفي إيمان امرأة فرعون لمحة للدعاة ، وهي أن دعوة الحق تخترق القصور ، وأن الله عز وجل قد أنزل في هذا الإيمان قرآناً يتلى ، فهي امرأة واحدة قد أسلمت ، وليس كل نساء مصر ، بل ليس كل نساء فرعون ، فالنجاح لا ينظر فيه إلى العدد فقط ، وأن حصون الكفر قد تخترق ، كما في إيمانها إيماءة لدعاة حقوق المرأة - هداهم الله جميعاً إلى سواء الصراط - أن امرأة فرعون كانت

(١) في ظلال القرآن: ٢٦٧٩/٥ ، لسيد قطب . دار الشروق - بيروت - القاهرة - الطبعة الشرعية الخامسة: ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .

(٢) سورة القصص: ٨ .

(٣) سورة القصص: ٩ .

(٤) سورة القصص: ٩ .

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٤٤٨/٦ .

(٦) سورة القصص: ١٠ .

في القمة ، وكانت تتمتع بكل الحقوق التي يسعى إليها دعاة حقوق المرأة ، بل دعاة تحريق المرأة ، ومع ذلك فلم تنتظر مغيب العمر ، وسقوط الدولة الكفرية العلمانية لتعلن إيمانها وبراءتها من فرعون وعمله ، إنها بإيمانها غدت نموذجاً في المقاومة ، ومثالاً أعلى لمن شاءت أن تستقيم ، وأخيراً فإن لنساء عليّة القوم رسالة أكبر من رئاسة الجمعيات ، وافتتاح المعارض والمهرجانات ، إنها تتمثل في إحياء النموذج الإسلامي المتمثل بآسية بنت مزاحم زوج فرعون ، المرأة النموذج الكامل في الخير ، فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (كَمُلْ من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران)^(١).

إن كن يردن الكمال فليتأملن سيرة هاتين المرأتين ، وسير أمهات المؤمنين ، وسير غيرهن من النساء الفاضلات . آسية هذه هي التي « اختارت القتل على الملك ، والعذاب في الدنيا على النعيم الذي كانت فيه »^(٢).

ألم يأن لدعاة حقوق المرأة أن تخضع آراؤهم لشرع الله وما أنزل من الحق ، ألم يأن لهم أن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وأن يقلعوا عن تلميع النماذج البائسة ، والوجوه الكالحة .

لم لا يلقون السمع لهذه القصة وأمثالها من القصص القرآنية ، ألا تشعر المسلمة بالتناقض عندما تولي وجهها في صلاتها إلى الكعبة ، ولكنها تستقبل في ثيابها كعبة فرنسية ، وفي سلوكها قبلّة أمريكية ، لم لا تكون موحدة النفس ، متحدة الحس في كل شؤونها وسلوكها ؟

قال فرعون لموسى صلى الله عليه وسلم:

﴿ ألم نربك فينا وليداً ، ولبث فينا من عمرك سنين ؟ ﴾^(٣).

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٤٤٦/٦ . حديث رقم: ٣٤١١ .

(٢) فتح الباري: ٤٤٨/٦ .

(٣) سورة الشعراء: ١٨ .

بعد انقضاء هذه السنين يخرج موسى من قصر فرعون ليدخل المدينة ، فقد يكون القصر في مدينة وموسى قد دخل مدينة أخرى ، غير أنه قبل أن يلج المدينة كان ذا دراية تامة ، أو شبه تامة ، بواقع البلد (مصر) وبأخبارها ، وهذه المعرفة كانت عن طريق أخته التي كانت تؤمن في مرحلة الطفولة أسباب الصلة به ، أو كانت هذه المعلومات عن طريق شخصية أخرى من آل موسى ، أو أحد أفراد بني إسرائيل ، هذه الصلة التي يفترض ، بل يعتقد ، أنها لم تنته بقطاع موسى ، بل لا بد أن تستمر بشكل أو بآخر تعريفاً لهذا الفتى بأهله ، وبالظروف التي أوصلته إلى قصر فرعون ، وبأوضاع بني إسرائيل ، وما يعانون من قهر وإذلال على أيدي فرعون وجنوده ، الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب: يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، ويستحيون نساءهم ، ويستبقون كبارهم للسحرة .

فهذا الفتى - بدون شك - كان يمتلك من المعلومات عن مراكز القوى وموازينها ، ويمتلك من القوة أيضاً ما جعله يستل من القبطي حياته بوكزة أو لكزة ^(١) ، فلقد كان في نفسه حديداً شديداً الغضب ^(٢) .

وإذا أردت أن تعرف مبلغ هذا الفتى من القوة في شبابه فاعلم أنه في شيخوخته جاءه ملك الموت فَصَّكَّهُ ، أي ضربه على عينه ^(٣) . إذا كانت هذه قوته في شيخوخته ، فأي قوة أودعت فيه حقبة الشباب ؟

في فترة ما بعد الطفولة يستوقفنا قتل موسى القبطي ، هذا القتل الذي جاء في الظاهر إغاثة لإسرائيلي من بني جلدته ، لكنه يعكس في الحقيقة ما كان يشعر به موسى تجاه فرعون ورعيته ، بيد أن موسى ﷺ لا يرتضي ما فعل ، وهو واضح في هذه المناجاة الصادقة: (قال - أي موسى -) : ﴿ هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ، قال رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي

(١) قرأ ابن مسعود (فلكزه) . الكشف: ١٦٠/٣ .

(٢) الكشف: ٩٤/٢ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ٤٤٠/٦ . حديث رقم: ٣٤٠٧ .

فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴿^(١)﴾ .

ولكن ندمه على هذا الحادث هل كان غضباً على الإسرائيلي الذي ورّطه بمواجهة لم يأن أوانها كما يرى بعض المفسرين ^(٢) ، أم كان رفضاً للقتل ، كقتل بغض النظر عن ارتباطه ببعد سياسي ، أو عدم ارتباطه بشيء غير إغاثة متسركة لمواطنه الإسرائيلي ضد قبضي ، ينتمي إلى فئة مستعلية ومتنفذة في ذلك الوقت .

وإذ أكّد لنا النص القرآني إدانة موسى ﷺ عمله ﴿ هذا من عمل الشيطان ﴾ ، ﴿ رب إني ظلمت نفسي ﴾ فقد أكد أيضاً أن شعوره بالأمن أخذ يتناقص ، ﴿ فأصبح في المدينة خائفاً يترقب ﴾ ، فلفظ (يترقب) يصور هيئة القلق الذي يتلف ، ويتوجس ، ويتوقع الشر في كل لحظة ، والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ ، وحالة موسى هذه تلهم أنه لم يكن في هذا الوقت من رجال القصر ، وإلا فما أرخص أن يزهد أحد رجال القصر نفساً في عهد الظلم والطغيان ! وما كان ليخشى شيئاً فضلاً عن أن يصبح خائفاً يترقب ، لو أنه كان ما يزال في مكانه من قلب فرعون وقصره! ^(٣) .

ولم يمض كبير وقت ليجد موسى ﴿ الذي استنصره بالأمس يستنصره ، قال له موسى : إنك لغوي مبين ﴾ ^(٤) .

غوي بعراكه هذا الذي لا ينتهي ، واشتباكاتة التي لا تثمر ، إلا أن تشير الثائرة على بني إسرائيل ، وهم عن الثورة الكاملة عاجزون ، وعن الحركة

(١) سورة القصص: ١٥ - ١٧ .

(٢) يرى الزمخشري في الكشف: ١٦٠/٣ ، وسيد قطب في ظلال القرآن: ٢٦٨٣/٥ - ٢٦٨٤ هذا الرأي .

(٣) في ظلال القرآن: ٢٦٨٢/٥ - ٢٦٨٣ .

(٤) سورة القصص: ١٨ .

المثمرة ضعفاء ، فلا قيمة لمثل هذه ، ولكن الذي حدث أن موسى - بعد ذلك - انفعلت نفسه بالغیظ من القبطي ، فاندفع يريد أن يقضي عليه كما قضى على الأول بالأمس ، وهذا الانفعال له دلالة على مدى امتلاء نفس موسى عليه السلام بالغیظ من الظلم ، والنقمة على البغي والضيق بالأذى الواقع على بني إسرائيل ، والتوتر لرد العدوان الطاغی الطویل الأمد .

وإذا كان القبطي الأول قد استقبل منيته دون أن ينبس ببنت شفة ، فإن الثاني تلقظ بعدة كلمات كانت - بتقدير الله - حائلة بينه وبين المصير الذي لقيه مواطنه بالأمس ، وفي خطابه لموسى تحذیر من سلوك هذه السبیل :
اقرأ قوله تعالى :

﴿ فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال : يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾^(١) ، لم يقل يا هذا ، أو يا رجل ، بل سماه باسمه ، وفي هذا دلالة على شهرة موسى ، فالحادث لم يقع في قرية ، بل في مدينة ، ﴿ ودخل المدينة ﴾ . ويبدو أن خبر قتل موسى قد عم المدينة ﴿ كما قتلت نفساً بالأمس ﴾ ، وأن هذا السلوك ليس المتوقع من رجل مثلك ﴿ تريد أن تكون جباراً في الأرض ﴾ ولعلي لا أجنب الصواب ، إن قلت : إن هذا القبطي قد نبه موسى إلى ما هو معروف عنه ، أو إلى ما يجب أن يعرف عنه ﴿ وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ .

وهكذا فلقد وضع قتل موسى القبطي على أبواب مرحلة جديدة ، لا سيما بعد أن : ﴿ وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال : يا موسى إن الملا يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين ، فخرج منها خائفاً يترقب قال : رب نجني من القوم الظالمين ﴾^(٢) .

(١) سورة القصص : ١٩ .

(٢) سورة القصص : ٢٠ - ٢١ .

ويلاحظ أن الرجل هنا جاء بصيغة النكرة ﴿وجاء رجل﴾^(١) ، وقال رجل مؤمن من آل فرعون ﴿^(٢)﴾ ، فكونه من آل فرعون لعل فيه دلالة على أن موسى في أثناء إقامته في قصر فرعون قد اخترق الجبهة الداخلية لآل فرعون؛ أي خاصته ، وفي قوله تعالى: ﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما...﴾^(٣) الآية .

أقول لعل في ذلك دلالة على أن موسى ﷺ قد اخترق الخطوط الأمنية لأعدائه ، وبات يمتلك مجموعة تتعاطف معه وسط قصر فرعون .

هذا حصل بفضل الله ، وموسى لم يُنبأ بعد - كما في سورتي القصص وغافر - ، وذلك دلالة على عصمة الله نبيه وشرح صدور العباد له ، ولا شك أن ذلك سيكون عوناً له في فترة النبوة والرسالة .

وإذا كان من تعقيب على هذا الحدث ، بوصفه جزءاً من هذه القصة الخالدة ، فإن القتل يشطب الحوار ، ويلغي السياسة ، ويهمش العقل ، ويجعل الدم بديلاً عن المداد ، نعم يفعل ذلك ، أو ما هو أخطر منه ، إن لم يكن - أي القتل - نتاج أحكام شرعية قطعية الدلالة ، يحكم به ذوو عدل وعلم ، ويكونون جهة ماذونة شرعاً في إصدار مثل هذا الحكم .

والتعقيب الثاني على هذا الحديث:

إذا كان الصمت من القبطي الأول قد تسبب - بعد قدر الله - في قتله ، فإن الكلمة ربما كانت سبباً - بعد تقدير الله - في أن منعت دم الثاني أن يسفك ، وربما جاز للمرء أن يتجاوز هذا التعقيب إلى محاكمة الصمت أو اللاموقف ، وامتداح الكلمة المسؤولة الواعية ، التي هي لبنة الحوار وضمانة الاستمرار لجميع الأطراف ؛ لأن الحوار ، مهما كانت فواتيره باهظة ، فهي

(١) سورة القصص: ٢٠ .

(٢) سورة غافر: ٢٨ .

(٣) سورة المائدة: ٢٣ .

أرخص على كل حال ، وأسلم للدين والدنيا من القسر والاعتساف والخيار الدموي ، والحوار يجب أن تلتزم به جميع الأطراف ، وإلا فإنه لا يعدو أن يكون مناجاة الفرد ذاته ؛ إذ حصرت صدور البعض أن يستمروا فيه ، وأنذ يدفع الجميع الثمن ، إذا غاب الآخر ، أو عُيِبَ من حِسناء ، وظننا أن مصالحنا وأفكارنا وسلوكنا هي الشرع ، أو كما قال بعضهم في لحظة غرور:

« كل آية خالفت المذهب فهي مؤولة ، وكل حديث خالف الإمام ففي إسناده أو متنه نظر ! »

وأخيراً فإن الحوار - تحت الشمس - كما حصل بين موسى ﷺ وفرعون ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ وبحضور كل أجهزة الإعلام ﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ، فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ؟ ﴾^(١).

إن مثل هذا الحوار بفضل الله ، ثم بما ألهم نبيه ﷺ ، هو الذي قوَّض ركانت الفرعونية ، وخلخل بنيانها ، وهذا أركانها ، وستكون لنا عودة إلى هذا الحوار قريباً إن شاء الله .

أيقن موسى ﷺ أن مقامه في ديار فرعون بات خطراً على حياته ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾^(٢) ، ﴿ قال: رب نجني من القوم الظالمين ﴾^(٣).

ولكنه في خروجه ، وإن كان واحداً ، لم يكن وحيداً ، كان معه لسانه الذاكر لله ، وقلبه العامر بتقاه ، وهذا ليس مجرد سجع أزجيه ، بل هكذا كان واقع موسى ، فهو يقول بعد مقتل القبطي على يديه: ﴿ هذا من

(١) سورة الشعراء: ٣٦-٣٩ .

(٢) سورة القصص: ١٨ .

(٣) سورة القصص: ٢١ .

عمل الشيطان ﴿^(١)﴾ ، ﴿ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾ ﴿^(٢)﴾ ، ﴿رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ ﴿^(٣)﴾ ، ﴿رب نجني من القوم الظالمين﴾ ﴿^(٤)﴾ .

وهكذا يجب أن يكون البشر جميعاً ، فلا يمسك أملهم أن يزول إلا الإيمان بالله ، ولا عزمهم أن يحول غير الثقة بالله ، ولقد حققت البشرية بغير إيمان نوعاً من ارتواء الأجسام ، غير أن هداة الروح ، واطمئنان الأفئدة لن تنالا بغير الإيمان ، ولا تبلغها البشرية بغير إسلام ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ ﴿^(٥)﴾ .

إن السياق القرآني يطوي الزمان والمكان ، ويترك فجوات بين مشاهد القصص ، تعلم من السياق ليصل مباشرة إلى المواقف الحية ذات الأثر في سير القصص وفي وجدان الناس ﴿^(٦)﴾ .

يدخل موسى قصر فرعون بغير اختياره ، ثم يخرج حاملاً كل الكره لما عليه فرعون وأعوانه من الفراعنة الصغار ، هامان ، وقارون ، وأضرابهما ، يخرج ليعيش تجربة دامية تضعه على الطريق المفضي إلى مدين ، (مدينة على بحر القلزم محاذية لتبوك ، وقيل مدين اسم قبيلة) ﴿^(٧)﴾ ، ولهذا قال تعالى : ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ ﴿^(٨)﴾ .

وقبل أن يبلغ (مدين) يصل إلى ماء البلد ، حيث مجتمع الناس

(١) سورة القصص: ١٥ .

(٢) سورة القصص: ١٦ .

(٣) سورة القصص: ١٧ .

(٤) سورة القصص: ٢١ .

(٥) سورة الرعد: ٢٨ .

(٦) في ظلال القرآن: ٢٣٣٦/٤ .

(٧) معجم البلدان: ٧٨/٥ ، لياقوت الحموي ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

(٨) سورة الأعراف: ٨٥ .

ومزدهمهم ، ليجد عنده أمة - جماعة كثيفة العدد - ^(١) ، وهناك ملتقى الرعاء ومعرض القوة:

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا
ويشد انتباهه فتاتان في مكان أسفل من مكان بقية الرعاة ﴿ ووجد من
دونهم امرأتين ﴾ ^(٢) وإذا كان موسى قد بطش بالقبطي بعد استغاثة الإسرائيلي
به ، فهو هنا لم ينتظر طلب الفتاتين المساعدة بل بادر إلى سؤالهما:
ما خطبكما (ما شأنكما) .

﴿ قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير ﴾ .

لم يزد على سؤال واحد . « رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف » ^(٣) .

ولم تكن هذه الشهامة والنخوة والقوة لتستعمل في السطو على الناس ،
أو استغلالها في لفت نظر الفتاتين أو الرعاة إلى قوته ، ما كان ذلك أبداً ،
وإنما يعرف موسى من صاحب الفضل في ذلك كله ، فيناجيه بعد أن سقى
للفتاتين شاقاً الصفوف ﴿ رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾ ^(٤) . لقد كان
هذا الحدث الخاطف في زمنه الحاسم في تنفيذه عميقاً في نفس البنتين ،
فحدثنا بذلك شعبياً عليه السلام (أوكانتا ابنتين لأحد صالحى مدين) .

وانتهى الحديث بأن ﴿ جاءته إحداهما تمشي على استحياء قالت إن أبي
يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقصّ عليه القصص ، قال: لا
تخف ، نجوت من القوم الظالمين قالت إحداهما ، يا أبت استأجره ، إن خير من
استأجرت القوي الأمين . قال: إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن
تأجرني ثمانى حجج ، فإن أتممت عشراً فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ،

(١) الكشف: ١٦١/٣ .

(٢) سورة القصص: ٢٣ .

(٣) الكشف: ١٦١/٣ .

(٤) سورة القصص: ٢٤ .

ستجدني إن شاء الله من الصالحين قال: ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ، والله على ما نقول وكيل ﴿^(١)﴾ .

فلنتأمل ملياً وجلياً صورة هاته الفتاة ، ولنتدبر كلماتها وإبانتها ، ﴿ إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ وحركتها ﴿ تمشي على استحياء ﴾ وعن سبب خروجها وأختها ﴿ أبونا شيخ كبير ﴾ . إنهما من ذرية النبوة ، ذرية آدم عليه الصلاة والسلام ، الذي خوطب بقوله تعالى: ﴿ لا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ . فالخروج لأدم وحواء ، أما التعب والنصب ، في مكابدة شؤون العيش ، فلا دم ﷺ ، ولذلك أفرد الفعل ﴿ فتشقى ﴾ . أين هذا الخروج المقيد بقدم سنّ الوالد من الخروج المعاصر لأكثر النساء بقيد أو بغير قيد ؟ لكأني أسمع قائلاً يقول: وهل تلزم نساء عصرنا بسلوك امرأة عاشت قبل قرون متطاولة ؟ ولكن قبل هذا السؤال سؤال هو:

من أين تستقدم المرأة المسلمة مكونات شخصيتها ؟ وما المبادئ التي تشكل مرجعيتها في هذه المكونات ؟ وهل حريتها في معتقدها ومسلكتها تنبع من النص أم من الهوى ؟ هل تستقدمها من نساء مشوهات ومشبوهات ، لم يقمن للعفة والفضيلة حساباً ، ولم يلجن للحياة السّوية باباً ؟ أم يجعلن قدوتهن بنات الأنبياء ونساء الصالحين ، التي كانت إحداهن تمشي على استحياء من غير تبرج بالكلام أو القوام .

وإذا كان نبينا محمد ﷺ قد أمر بالاعتداء بأولئك الأنبياء ، فالمسلمون مأمورون بالمطابقة ، والله در حبر الأمة الغواص أبو العباس عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عندما سأله تلميذه مجاهد عن السّجدة في الآية الرابعة والعشرين من سورة (ص) فقال: ما رواه البخاري في صحيحه في غير موضع ، وبالألفاظ مختلفة ، أورد للقارئ إحداها ، كما هي في فتح الباري: قال أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى: حدثني محمد ابن عبدالله ، حدثنا محمد بن عبيد الطنافسي عن العوام قال: سألت مجاهداً

(١) سورة القصص: ٢٥ - ٢٨ .

عن سجدة سورة (ص) فقال : سألت ابن عباس من أين سجدت ؟ فقال :
أو ما تقرأ : ﴿ ومن ذريته داود وسليمان ﴾^(١) ، أولئك الذين هدى الله
فبهدهم اقتده ﴿^(٢) فكان داود ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به ، فسجدها
داود ، فسجدها رسول الله ﷺ^(٣) .

وقد لا يكون في وسع أي عمل أدبي ، مهما أوتي من حجج ، أن
يَصُدَّ تيار الحياة الهادر ، فيعيد المرأة إلى خدرها ، لن يحصل ذلك إلا أن
يشاء الله ، ولكن إذا كان الواقع السيئ للمرأة المعاصرة نتاجاً لثقافة هجين ،
وامتداداً لسلوك نسوة لاخلق لهن ، فإن بمقدور نساء لا زلن مُسْتَمْسَكَات
بالعروة الوثقى لفضائل الأخلاق أن يحيين سنن أمهاتهن الصالحات ، وأن
يقدمن نماذج واعية ، غير مستلبة ، للمرأة المسلمة في هذا العصر ، وقد لا
يكون الخروج بحد ذاته إحدى الكبر ، بل تكون في وسيلة الخروج وغايته ،
بل قد تكون الخلفية التي تكمن وراء هذا الخروج ، والذهنية التي يتم فيها ،
هي المعضلة الكبرى .

إن المرأة المعاصرة بنت فلان وفلانة في النسب ، ولكنها في الفكر
والسلوك تتحدر من أصول بعيدة وأبواب غريبة ، حتى باتت هذه الأصول
تشكل بمجموعها شخصية أكثر النساء في العصر الحاضر ، ولعل أظهر
المؤثرات في هؤلاء النساء هي المؤثرات الغربية ثقافة وسلوكاً مثلاً أعلى ،
وليس من العدل أن تُلقى تبعة ذلك كله على المرأة ، فالأمة التي عجزت عن
الإبداع وتجديد شباب قيمها المتراجعة ، واستثناف دورها الرسالي ، لا
يستغرب أن تخضع المرأة ، وحتى الرجل فيها لقيم تتناقض كلياً أو جزئياً مع
الإسلام .

بعبارة موجزة ، وضع المرأة جزء من الوضع الماسوي العام للأمة ، وما

(١) سورة الأنعام: ٨٤ .

(٢) سورة الأنعام: ٩٠ .

(٣) فتح الباري: ٥٤٤/٨ ، الحديث رقم: ٤٨٠٧ .

إخال أن إنفاذاً شاملاً لهذا الوضع ممكن بمعزل عن تحسين الوضع العام للأمة ، ولكن ذلك لا يعني أن تُلغى أو تُؤجل كل الجهود باتجاه المرأة ، حتى تعود دولة الرشيد السحابية (حقبة حكم المسلمين للدنيا كلها) ، فالنص الذي أمامنا يشكل المساندة والرفد المعنوي لما يجب أن يتبناه المصلحون ، فالفتاتان لم تلجأ إلى مخالطة الرجال ومزاحمتهم في مستقى الماء ، بل آثرتا - حياء وخفراً - أن تكونا بمفازة فجاءتهما الجائزة ؛ إذ قيض لهما من يسقي أنعامهما ، وتعود إحداهما زوجة لواحد من أولي العزم من الرسل ، قال عنه رسولنا محمد ﷺ : (الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري ، أفأق قبلي أم جُوزي بصعقة الطور)^(١).

وفي حديث آخر عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أخرج البخاري - رحمه الله - قوله ﷺ : (لا تخيروني على موسى ، فإن الناس يصعقون ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي ، أو كان ممن استثنى الله)^(٢).

إن عدم توافر الفرص أمام حل شامل لا يلغي الحلول الفردية ، التي يجب أن تسبق الحلول الجماعية ، وإذا كانت مسؤولية الإنقاذ الجماعية قد تسقط أحياناً عن الأفراد ، فإن تحصين الجبهة الذاتية ، التي تشمل شخصاً وأسرة ، لا يمكن أن تسقط إلا في حالة سقوط التكليف الشرعي للمسلم . والزواج أحد المنعطفات المهمة في حياة المرأة ، يجب أن يظل حاضراً في المرتبة الأولى من سُلّم اهتمامات الأهل ، وانتظار الزوج القادم من المجهول ، ليس السبيل الوحيد لذلك ، فقد يأتي وقد لا يأتي ، لذا فإن مسؤولية المعنيين من الأهل في الرصد والمتابعة لاختيار الرجل المناسب مسؤولية أساس ،

(١) فتح الباري: ٤٣٠/٦ ، حديث رقم: ٣٣٩٨ .

(٢) فتح الباري: ٤٤١/٦ ، الحديث رقم: ٣٤٠٨ .

وفي فعل والد البنتين ﴿إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين﴾^(١) ما يجب أن يزيل من أنفسنا حرجاً نشعر به ، عندما يفكر أحدنا أن يخطو مثل هذه الخطوة ، التي قد لا يقدرها الرجل حقّ قدرها ، ولكن لتتذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، الذي يمثل بعد رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه معنى الإباء والاعتداد بالقيم ، لم تمنعه هذه المعاني كلها أن يعرض ابنته حفصة ، رضي الله عنها ، على بعض الصحابة ، ولن ينسى التاريخ فعلة سعيد بن المسيب مع تلميذه ابن أبي وداعة عندما عرض عليه ابنته ، ثم زفها إليه بأقل المظاهر التي تصاحب الزواج ، ويزيد من تقديرنا لهذه الخطوة أن سعيد بن المسيب ، الذي عرض ابنته على تلميذه ، كان قد أبى تزويجها لأحد أمراء البيت الأموي . ويبلغ الإعجاب قمته عندما يهتم الزوج في أيام عرسه الأولى بالتوجه إلى حلقة شيخه والد الزوجة ابن المسيب فتقول له الزوجة:

« إن لم يكن لك من أرب في الخروج إلا علم سعيد ، فقد كُفيت ،
فها هو ذا في صدري ، قد وعيته ، فخذ منه ما شئت !!! »^(٢).

وكم فرصة ضاعت على فتاة وعلى فتى أيضاً ، حيث لم يلهم أبوها أن يقول: ﴿إني أريد أن أنكحك﴾^(٣) ، وأيا كان الموقف الذي تستقبل به كلمات المفكرين ، فإن مسؤولية هؤلاء لا تتحدد أو تنبع من هذا القبول أو ذاك الرفض ، بل تنبجس من التزامهم الفطري وموقعهم الفكري ، شأنهم وقدرهم كالنحلة تتغذى بالرحيق لتنتج منه العسل ، وكم من دعوة طمرتها الأحقاد والجهالات ، وغمرتها أهوية النفوس ، ثم قيض لها من أزاح التراب عن تبرها ، والغناء عن جوهرها ، فبدت كأنما هي فص من الماس ، يعطيك كل ضلع منه شعاعاً ، فإذا نظرت إلى أضلاعه جميعاً بهرتك بالوان

(١) سورة القصص: ٢٧ .

(٢) النبأ العظيم: ١١٨ .

(٣) سورة القصص: ٢٧ .

الطيف كلها ، فلا تدري ماذا تأخذ عينك منها ، وماذا تدع ، ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك لرأى فيها أكثر مما رأيت .

وعلى النقيض من ذلك كم من دعوة احتضنها السلطان ، ومكن لها غياب العلم والإيمان ، فأهلكت الحرث والنسل ، وعاثت فساداً في العقول والقلوب ، ثم انقطعت بها أسباب البقاء وسبل الحياة . تأمل الشيوعية مسيرها ، ثم مصيرها ، ودعوة تحرير ، بل تحريق المرأة التي توردها موارد الهلاك ، وتحلها دار البوار ، إن مصير هذه الدعوة رهن بقدر الله ، ثم بالمؤسسات والشخصيات التي تدعمها . وأخيراً فإن عجزاً أو تعاجز الإسلاميين أو منعهم من صياغة مشروع إبداعي يسقط الرؤى المضادة ، ويسكت الأصوات المحادة ، إن ذلك أقوى الحجج في يد الخصوم .

وفي ظل هذا العجز أو التعاجز أو المنع يمتلك دعاة تحريق المرأة أهم مسوغات وجودهم ، وأسباب بقائهم . ولعل الباحث المتأمل لا يفوته أن يبين أن إطراء الفتاة لصفتي القوة والأمانة ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾^(١) ، يدل على فهمها لموازين الرجولة الحققة ، التي غابت الآن في كثير من نظرات الشباب إلى النساء ، وما يجب أن يطلبوا فيهن ، وعن نظرات الفتيات إلى الشباب ، وما يتعين أن يتطلعن إليه فيهن .

بعد أن فرضت قريش الحصار والمقاطعة على المسلمين في شعب عامر ابتغاء الضغط على النبي ﷺ ليتراجع عن دعوته إلى الإسلام ، وبعد وفاة عمه أبي طالب ، وما كان يمثله من درء عن الرسول والرسالة ، ووفاة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ، التي كانت مثابة النبي الوجدانية والمعنوية ، بعد ذلك جاء حدث الإسراء والمعراج^(٢) ، تكريماً للنبي ﷺ ، ومعجزة جديدة تضاف إلى ما أكرمه الله عز وجل من معجزات ، وسيدنا موسى ﷺ لعله قد عاش حالة مقاربة ، فبعد خروجه من قصر فرعون ، ولعل خروجه

(١) سورة القصص: ٢٦ .

(٢) فتح الباري: ٤٣٨/٦ ، حديث رقم: ٣٤٠٦ .

على صاحب القصر قد سبق خروجه منه ، قد واجه مشكلة قتل القبطي ، والشروع في قتل الآخر ، والشعور بفقدان الأمن في مصر ، ثم مسيره إلى مدين ، والتعب الذي حل به بعد هذه الأحداث الجسام ، فإن الله عز وجل قد هيا له - فضلاً منه ومئة - لقاء بوالد الفتاتين ، ليشعر أولاً بالأمن ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾^(١) ، وليأجر لهذا الرجل الصالح ، ويؤدي مهمة رعي الغنم التي تشرف بها الأنبياء جميعاً ، وهل من نبي إلا وقد رعاها ؟ (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم) ، فقال صحابته: وأنت ؟ فقال: (نعم ، كنت أرها على قراريط لأهل مكة)^(٢) ، وبذلك يدخل موسى ﷺ أحد فصول مدرسة الأنبياء ، فهم ليسوا مثل أولئك الوائين على السلطة، أو المستقدمين إليها دونما رصيد ، أو تدرج في سلم المسؤوليات .

« قال الأئمة: إن الحكمة في رعاية الأنبياء الغنم ؛ ليأخذوا بالتواضع ، وتعتاد قلوبهم الخلوة ، ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم »^(٣) .

وقد لا يدور في خلد أحد إلزام الحكام من رؤساء وملوك بدورة في رعاية الغنم ، ولكن نبشوني بعلم كيف يكون حال الأمة مع حكامها من رؤساء وملوك إذا تجاوزوا في وصولهم إلى القيادة المؤسسات الشرعية ، ولم يعتادوا تحمل أدنى المسؤوليات ، وإذا كان الله عز وجل ييسر لأنبيائه المعصومين هذه التجارب ، فكم هي حاجة البشر العاديين إلى مثلها ، بل إلى ما يقاربها ؛ ليسيروا في الرعية سيرة الأنبياء ، بل سيرة الصالحين المصلحين؟

إن التربية العملية في الثقافة المعاصرة محدودة ، بينما هي في دعوة الرسل والأنبياء متوازية ومتطابقة مع التربية النظرية ، هذا إن لم تتجاوزها ، وفي هذا الجواب المفعم بالحب والتقدير من والد الفتاتين لموسى ﷺ ، لم تمنعه هذه المودة العارمة من أن يتفق مع موسى بوضوح وبعبارات محددة:

(١) سورة القصص: ٢٥ .

(٢) فتح الباري: ٤/٤٤١ ، الحديث رقم: ٢٢٦٢ .

(٣) فتح الباري: ٦/٤٣٩ .

﴿ إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ، على أن تأجرني ثمانى حجج ﴾
وإذا كان يترك لموسى هامشاً خارج العقد ﴿ فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾
فإنه سيكون هو الآخر ملتزماً بموجبات الإيمان قبل ملتزمات العقد ﴿ ستجدني
إن شاء الله من الصالحين ﴾ .

ما أحوجنا إلى صراحة تعطي كل ذي حق حقه ، وما أشد احتياجنا إلى
عقود تكون الضمانة الأخلاقية فيها أعمق من الضمانة السلطوية ، ثم انظر
إلى الإيجاب من موسى ﷺ : ذلك بيني وبينك ، وإلى استشهاده الله على
ما تم بينهما : ﴿ والله على ما نقول وكيل ﴾ .

لقد كانت كل هذه الابتلاءات التي واجهت سيدنا موسى ﷺ ، وهذه
التجارب والمباهج نعماً من الله ؛ لتبتي هذه الشخصية للمهمة الكبرى ، وهي
مهمة التصدي لأخبث شخص ، أعلن بتبجح وشرك كبار ﴿ ما علمت لكم
من إله غيري ﴾ ، ﴿ وأنا ربكم الأعلى ﴾ ، وأسس دولة وفقاً لهذه الرؤية
الدمرة ، ولعل مواجهة موسى (في قراءة موسى)^(١) ، للشرك المؤسس
على دولة ، أو العكس ، كانت وراء السبب في تطويل النص القرآني للقصص
المتعلق بموسى ﷺ ، فما أن انتهت مدة عقده في مدين ، حتى قفل عائداً
إلى مصر ؛ لتبدأ أعنف مراحل الصراع في حياته مع فرعون وملئه ، ومع
بني إسرائيل الحاضرين الدائمين ، والمحرضين المستمرين - إلا من آمن منهم -
إذ قل أن توجد مشكلة عالمية ليس لليهود فيها دور ، وقل أن يُحرّض على
شرٍّ إلا تجدهم حاضرين فيه ، موقدين لنار الحرب ، مسعرين للظى الفتن .

قضى موسى الأجل المحدد له في (مدين) وولى وجهه شطر مصر ،
ولعل أكبر همه أن يكون الأقباط قد أنسوا قتل أحدهم على يديه ، وأن يقيم
مع قومه بني إسرائيل ناشراً ما فُطر عليه من مثل طيبة ، ولكن فضل الله
كان عظيماً ، فقد قدر سبحانه أن يشرق على يد هذا الفتى فجر جديد
للبشرية ، من جانب الطور ، و ﴿ من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة

(١) الكشف : ١٥٩/٣ .

من الشجرة ﴿^(١)﴾ حيث نودي: ﴿أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾ ﴿^(٢)﴾ ،
﴿فلما أتاها نودي يا موسى: إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس
طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم
الصلاة لذكري﴾ ﴿^(٣)﴾ .

أي تفسير ، وأي تصوير يحيط بجلال هذه اللحظة وجمالها ؟ وأي
أسلوب - غير الأسلوب القرآني - يمكنه أن ينقل ما في هذا النص المبارك من
معان وحقائق أو يحملها ؟

قد يعيش المرء عمراً مديداً ، لا يميز يوم فراقه هذه الحياة عن يوم قدومه
لها شيء ، اللهم إلا اختلاف زمن القدوم عن تاريخ الرحيل ، وقد يوفق
الله بعض الناس أن يخالطوا أوساطاً ذينة مثقفة ، فتجعل هذه المخالطة -
بفضل الله - لكل لحظة من ثوان العمر معنى عظيماً ، ومذاقاً خاصاً .

ولكن حياة أي إنسان مهما ارتفعت ، وكانت هنيئة رضية ، لن تبلغ يوماً
في عمقها وفضلها ، وفي أي عنصر من عناصر تقويمها ، ما تبلغه حياة
الرجل يمين الله عليه - تشريفاً وتكليفاً - بالنبوة والرسالة .

إن حياة سيدنا موسى ﷺ قد دخلت طوراً جديداً بالرسالة ، إذ بات
الوحي موجهها ، والنص الإلهي مرشدها: ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى
إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ ﴿^(٤)﴾ ، وإنقاذ مصر من
فرعون والفرعونية هدفه: ﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ ﴿^(٥)﴾ .

﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ ﴿^(٦)﴾ ، ﴿وإذ نادى ربك موسى: أن ائت القوم

(١) سورة القصص: ٣٠ .

(٢) سورة القصص: ٣٠ .

(٣) سورة طه: ١١ - ١٤ .

(٤) سورة طه: ١٣ - ١٤ .

(٥) سورة طه: ٢٤ .

(٦) سورة طه: ٤٣ .

الظالمين ، قوم فرعون ﴿^(١)﴾ .

﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾^(٢) ، والدعوة إلى التوحيد والإسلام غايتها ومطلبها: ﴿ فأنبأه فقولا: إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ، ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ، إنا قد أوحى إلينا: أن العذاب على من كذب وتولى ﴾^(٣) . ولم ينس موسى ﷺ قتل القبطي ، ولئن نسي ذلك فلن ينسى جيروت فرعون وطفغيانه ﴿ قال: رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ﴾^(٤)

﴿ قالوا: ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾^(٥) ، فطمأنه الله عز وجل وأخاه ، ﴿ قال قد أوتيت سؤالك يا موسى ﴾^(٦) ، ﴿ قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى ﴾^(٧) ، ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾^(٨) . تهيئة كاملة من الله عز وجل لموسى ﷺ: ﴿ ولتصنع على عيني ﴾^(٩) ، ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾^(١٠) ، للمهمة العظيمة في حياته ، بل في حياة البشرية كلها ، فلولا فضل الله ورحمته باستنقاذ البشرية من الطواغيت على أيدي الرسل والأنبياء والدعاة الصالحين المصلحين ، لباتت الأرض ييباباً والحياة خواء ، ولكم ادعى مدّع

(١) سورة الشعراء: ١٠ - ١١ .

(٢) سورة طه: ٢٤ .

(٣) سورة طه: ٤٧ - ٤٨ .

(٤) سورة القصص: ٣٣ .

(٥) سورة طه: ٤٥ .

(٦) سورة طه: ٣٦ .

(٧) سورة طه: ٤٦ .

(٨) سورة القصص: ٣٥ .

(٩) سورة طه: ٣٩ .

(١٠) سورة طه: ٤١ .

الصالح والإصلاح ، ألم يقل فرعون عن موسى ودعوته وهي مقولة أعداء الدين اليوم:

﴿إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾^(١) ، فاقام هؤلاء المدعون الأدعياء أمرهم على غير دين ، أو ابتنوه من منظومة ملفقة فأزالوا باطلاً بباطل ، ومنكراً بأنكر .

إن الله عز وجل ابتعث موسى ﷺ لاقتلاع الشرك ، وأعاناه بكل ما يحتاج إليه من رسائل الحوار في الصراع .

يقول تقدست أسماؤه: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾^(٢) . هذا الصراع الذي أخذ يقترب من موسى ، وأخذ موسى يقترب منه ، يخرج من مصر ﴿خائفاً يترقب﴾ ، ليعود إليها فاتحاً ، مبتدئاً أمره مع فرعون بحوار طال وتعدد ، وتنوعت أساليبه وعباراته^(٣) ، وتعدد وقائع هذا الحوار وتكراره ليس مستغرباً ؛ إذ كيف سيتنازل فرعون لموسى ﷺ عن عقيدته وحكومته ، وعن مصر بما فيها ﴿من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم﴾^(٤) . كيف سيتنازل عن ذلك كله بلقاء أو لقائين ، أو حوار أو حوارين ؟

ثم إن موسى ﷺ لم يبعث ليرمم الحكم الفرعوني ، أو لعلاج موضعي في بنيته ، التي استعصت أدواؤها ، فلو جاء لمثل هذه الأمور ، كما يحاول كثيرون من الدعاة في هذا الزمن عندما يختزلون الدعوة بالموالد ، وفتات الموالد التي يتركها السياسيون بعد مغادرة قاعة الاجتماعات ، لو جاء موسى لمثل هذه الأمور ، وهذا مستحيل ، لانهى الإشكال ، ولكانت قصته

(١) سورة غافر: ٢٦ .

(٢) سورة غافر: ٢٣ .

(٣) انظر على سبيل المثال الآيات: ٤٧-٤٩ من سورة طه ، والآيات: ١٠-٦٨ ، من سورة الشعراء ، والآيات ٣٦-٤٢ من سورة القصص .

(٤) سورة الشعراء: ٥٧ - ٥٨ .

عرضت في القرآن الكريم بأقصر من الزمان والمكان الذي تشغله هذه القصة المباركة من آي الذكر الحكيم .

كان فرعون يمثل حكومة الأمر الواقع الراسخ المدعوم من الفئات القديمة الجديدة ، ذات المصلحة المباشرة أو غير المباشرة في استمرار مثل هذه السلطة ، فرعون ، وهامان وجنودهما ، وقارون ، والكهنة ، وليس من السهل إزالة التحالف الذي مثل ويمثل ، في نظر أصحابه ، حكماً دستورياً شرعياً يحرم تهديده والخروج عليه .

إن دفاع فرعون ومن وراءه عن مكاسب الحكم المادية والمعنوية لا تأتي سافرة ؛ ففرعون يسأل موسى وأخاه عن مستندهما في دعوته ﴿ فمَنْ رِبْكُمْ يَا مُوسَى ﴾^(١) ، و﴿ فَمَا بِالْقُرُونِ الْأُولَى ﴾^(٢) ، ولا يرى في دعوة موسى غير سحر وفي موسى غير ساحر: ﴿ أَجِئْتَنَا لَتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾^(٣) ، ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ: إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾^(٤) .

بل يظهر المسؤولية عن عقيدة الأمة ﴿ ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ، وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ ﴾^(٥) ، في غفلة من الحق وأهله ، أو في حقبة استضعاف لهم ، تتمكن فئة معينة من السيطرة على مقاليد الأمور ، فلماذا دعا أهل الحق إلى تصحيح الموازين بتحكيم الإيمان وليس تقلبات الزمان ، تصايح أهل الباطل: ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ ﴾^(٦) .

هكذا ووجه الأنبياء ، وبهذا يواجه حاملو ميراث النبوة الآن ، هل يعقل

(١) سورة طه: ٤٩ .

(٢) سورة طه: ٥١ .

(٣) سورة طه: ٥٧ .

(٤) الشعراء: ٣٤ .

(٥) سورة غافر: ٢٦ .

(٦) سورة ص: ٥ .

أن النظام الذي نعيش في ظلاله مُنذ كذا وكذا من سنين أو قرون باطل أو غير صحيح ؟ قال فرعون لموسى ﷺ : ﴿ فما بال القرون الأولى ؟ ﴾^(١) .
إن الحق لا يكون بكثرة الأتباع ، ولا بتقدم الزمان ، ولا بالفتاوى المزيفة ، أو القوة المتحكمة ، والبرلمانات المعلبة .

إن الحق - ولا يكون بغير ذلك - حكومة تستند في وجودها إلى نصوص الشرع ، وترعى في سياستها المصالح الحقيقية للأمة ، التي تكون هي الأخرى نابعة من الشرع ، أما أكوام الدساتير ، وأكداش القوانين ، ومثلهم معهم من المتفقهين ، فلن تمنح الشرعية لغير الشرعي ، مهما اجتهدت فيما تُقسّم من إيمان ، أو تقسّم من ألقاب الباطل على فروعها ، والألقاب المفتراة على الخصوم (فالناس إما محمدي موسوي ، وإما فرعوني)^(٢) .

قلت : لقد تعددت جولات الصراع بين رسول الله موسى ﷺ وفرعون ، لعنه الله ، استعان موسى بربه عز وجل ، وأجلب فرعون بخيله ورجله ، فلقد ظن أن موسى مجرد ساحر ، وأن استدعاء بعض حذاق السحرة يذيب دعوته ﴿ فلنأتينك بسحر مثله ﴾^(٣) ، ﴿ فتولى فرعون فججمع كيده ثم أتى ﴾^(٤) ، بدأ موسى بمواجهة هذا التجمع اللثيم الماكر بقوله : ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذباً ، فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى ، فتنازعوا أمرهم ﴾^(٥) ، إن هذه الكلمة أثمرت هذا التصدع والانشطار في فريق فرعون ، إنها دعوة لأهل الحق أن يتذكروا أنَّ كلمة الحق التي تقال ستجد بفضل الله صدى في بعض قلوب الخصوم ، وأن التنازع أول الوهن وبداية النصر ، إن محترفي السحر وكذلك يكون شأن كل احتراف باطل ، إلا ما شاء الله - أدركوا أنهم

(١) سورة طه : ٥١ .

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام : ٢٥٣/١٢ .

(٣) سورة طه : ٥٨ .

(٤) سورة طه : ٦٠ .

(٥) سورة طه : ٦١ - ٦٢ .

بحضرة نبوة ، وفي مواجهة رسالة ، وأنّ الاعيهم ، لا مستقبل لها ، وأن الفرصة الذهبية هي التخلي عن فرعون كفراً وفكراً ، ولو كانت خسارة الدنيا والحياة كلها ثمناً لصون إيمانهم : ﴿ قالوا لن نؤثر على ما جاءنا من السيئات والذي فطرنا ، فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ، إنا آمنّا بربنا ليغفر لنا خطايانا . وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ، ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾^(١) .

وكما يقول الفقهاء : العبرة بعموم النص ، لا بخصوص السبب ، وبلغه الأدب ، إن قوة النص في تجاوزه تاريخية وبقاء مشعاً في مطلق الأزمنة ، فإن قوله تعالى على لسان السحرة الذين آمنوا : ﴿ إنه من يأت ربه مجرمًا ﴾ ، ﴿ ومن يأت مؤمناً ﴾ وما ينتظر كل فريق من مصير ، يجعل منازل الباطل مفتوحة ، ومصائر الفرقاء تكون بحسب موقفهم في الدنيا ، لقد ركز موسى ﷺ راية الحق وميّز أعلامها ، وجعل فرعون نفسه من أئمة الضلال ، فصار رمزاً للطغيان في كل جيل وقبيل ، وبمصطلح الأدب المقارن صار فرعون وما يمثل (نموذجاً) وصدق الله العظيم القائل : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾^(٢) .

﴿ فاليوم ننجيكَ بيدنك لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾^(٣) ، ففرعون قد بلغ في الشر مرتبة الإمامة ، وهو لم ينبج منه البدن فقط ، بل شاء الله عز وجل أن تكون معالم كفره ، ومكونات فكره قرآناً يتلى ، واسمه تجاوز صاحبه ، ليصبح علماً على كل شرير مجرم ،

(١) سورة طه : ٧٢ - ٧٦ .

(٢) سورة القصص : ٤١-٤٢ .

(٣) سورة يونس : ٩٢ .

فرسول الله محمد ﷺ ، لما بشر بقتل أبي جهل يوم بدر ، قال : (هذا فرعون هذه الأمة) ^(١) .

وفي الكشف للزمخشري : « ولعنة الفراعنة ، اشتقوا تفرعن » ^(٢) ، وفي تفسير ابن كثير : « علم على كل من ملك مصر ، وأيا كان فعله لعنة الله » ^(٣) .

وفي لسان العرب : « الفرعنة : الكبر والتجبر . وفرعون كل نبي : ملك دهره ، وفرعون الذي ذكره الله تعالى في كتابه إنما ترك صرفه في قول بعضهم ، لأنه لاسمي له كإبليس ، فيمن أخذه من إبليس ، وكل عات فرعون . والعتاة : الفراعنة .

وقد تفرعن ، وهو ذو فرعنة أي دهاء وتكبر وفي الحديث : (أخذنا فرعون هذه الأمة) ، وقيل : الفرعون بلغة القبط : التمساح » ^(٤) . وفي اللغة الإنجليزية PHAROH فرعون طاغية .

وهكذا نجد أن قيمة هذه القصة العظيمة لم تكن فقط فيما عكسته من أبعاد الإنجازات النبوية المتحققة ، بل بما تمتلكه أيضاً تلکم الآيات المباركة واللغة القرآنية المعجزة من أسرار وطاقات ؛ لتحقيق منجزات آتية إن شاء الله .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام : ٢٥٣/١٢ .

(٢) الكشف : ٦٨/١ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٩٤/١ .

(٤) لسان العرب : ٣٢٢/١٣ .

—

—

—

—